بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر

١٦ / ٠٤ / ١٤٤٠

فصلٌ

ثُم ذكر الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه أخبار الرَّكْبِ وأشياء، إلىٰ أن قال: هذا وأوّل الأمر وآخره إنما هو معاملة الله وحده، والانقطاع إليه بكلية القلب، ودوام الافتقار إليه، فلو وفّىٰ العبد هذا المقام حقه لرأىٰ العجب العجيب من فضل ربه وبِرِّهِ ولُطفِهِ ودِفاعه عنه، والإقبال بقلوب عباده إليه، وإسكان الرحمة والمحبة له في قلوبهم، ولكن نقول: ربنا غلبَ علينا لُؤمنا! وجهلنا! وظلمنا! وإساءتنا! مِنْ أذَلّ شيءٍ منه، فها نحن مقرون بالتفريط والتقصير، ومن ادّعىٰ منّا عندك وَجاهةً فليس إلا ذليل حقير، فإن تكلنا إلىٰ أنفسنا تكلنا إلىٰ ضيعة وعجز وذنب وخطيئة، فواحسرتاه وواأسفاه علىٰ رضاك ولو غضب كل أحد سواك، وعلىٰ إيثار طاعتك ومحبتك علىٰ ما سواهما، وعلىٰ صدق المعاملة معك:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضىٰ والأنامُ غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الوُدّ فالكل هيّنٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فهذا الفصل الأخير من هذه الرسالة العظيمة النافعة للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، والتي كتبها كما علمنا وصيةً لرفقائه وزملائه في الشام، الذين رافقوه في طلب العلم وتحصيله.

وهي رسالة اشتملت علىٰ نُصحٍ عظيم في باب عظيم، ألا وهو «السير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ» وما يتطلبه هذا السير من زادٍ عظيم، يبلغ به العبد رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجنات النعيم.

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنّ زاد هذا المسافر أنْ يُهاجر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام، هجرةً إلىٰ الله بالإخلاص والعبودية، وإلىٰ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالانقياد والمتابعة، وبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنّ السير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يستقيم إلا بهذا.

ثم إنّه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أوصىٰ وصية عظيمة لهذا المسافر إلىٰ الله جل وعلا، أن يعتني بالقرآن الكريم تدبرًا لهداياته، وتفقهًا في معانيه ودلالاته، ومجاهدة للنَّفس علىٰ العمل بهذا الكتاب العظيم، الذي فيه عزّ المسلم

وفلاحه وسعادته في دنياه وأخراه، إن وفّقه الله ﷻ للعناية بهذا القرآن تدبرًا وعملًا.

ثم في هذا الفصل الأخير من هذه الرسالة، أو هذه الوصية، أشار الناسخ أنّ (الشيخ) رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ (ذكر أخبار الرَّكب، وأشياء).. وهذا يُفيد أنَّ الناسخ في هذا الموطن لعلَّه اختصر شيئًا من رسالة الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وأشار إليه إشارةً مُجملة، وهو حديث ابن القيم عن الرَّكب وأشياء - أي من هذا القبيل – الرَّكب: أي ركبُ هذا السَّفر، وهم الصالحون من عباد الله، المُستقيمون علىٰ طاعة الله، المجاهدون أنفسهم علىٰ نيل مرضاة الله ﷻ.

ثم ذكر خاتمة لهذه الوصية: أنّ (أول الأمر وآخِره)، أي: مردُّ الأمر في هذا الباب علىٰ (معاملة الله وحده، والانقطاع إليه) بالكلِّية، (ودوام الافتقار إليه)، فهذا الذي ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هو الذي إليه مردّ هذه الوصية، حسن معاملة العبد مع الله ذُلًّا وافتقارًا إلىٰ الله ﷻ، وانكسارًا بين يديه جل وعلا، وذلًّا وخضوعًا لجنابه، بأن يكون مُخبتًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود]، فهذا الذي يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هو الإخبات إلىٰ الله ﷻ، ذلًّا وخضوعًا وانكسارًا بين يدي الله ﷻ، وافتقارًا إلىٰ الله جلَّ وعلا.

يقول: (فلو وفّىٰ العبد هذا المقام حقه لرأىٰ العجب العجيب من فضل ربه)، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦]، فمن وفّىٰ هذا المقام رأىٰ أثر ذلك معجَّلًا في الدنيا؛ لأنّ أهل هذا الوفاء والصِّدق مع الله ﷻ لهم ثوابٌ في الدُّنيا مُعجَّل، نعيمٌ في الدنيا معجل، ونعيمٌ في البرزخ، ونعيم أبديٌّ خالد يوم لقاء الله ﷻ، كما قال الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾ [الانفطار:١٣]، قال المصنف - أعني ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أي في دورهم الثلاثة، الدنيا والبرزخ - الذي هو القبر -، والدار الآخرة.

(فلو وفّىٰ العبد هذا المقام لرأىٰ العجب العجيب من فضل ربه وبره ولطفه ودفاعه عنه)، مثل ما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج:٣٨]، وفي صلاتنا اليوم المغرب استمعنا إلىٰ آية فيها شاهد لهذا الأمر، ما الآية؟ نعم، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [يونس:١٠٣]، فهذا الدفاع عن المؤمنين وتحقّق النجاة لهم هو من ثمرة صدقهم مع الله، وثمرة إيمانهم وعبوديتهم وذلّهم بين يدي الله ﷻ.

قال: (والإقبال بقلوب عباده إليه)، هذه كلها آثار يتحدث عنها، آثار معجَّلة في هذه الحياة الدنيا، فمِن هذه الأثار (الإقبال بقلوب عبادِه إليه)، أي: أنّ الله ﷻ يجعل له مودَّة في قلوب الخلق، هذه المودّة الله الذي يجعلها، وهو الذي يضعُها، مثل ما جاء في أواخر سورة مريم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم]. وفي الحديث المشهور: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض**» [صحيح مسلم]، فهذا معنىٰ قول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (والإقبال بقلوب عباده إليه، وإسكان الرحمة والمحبة في قلوبهم)، يجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له في القلوب رحمة، ويجعل له في القلوب محبة ومودة.

قال: (ولكننا نقول: ربنا غلب علينا لؤمنا، وجهلنا، وظلمنا، وإساءتنا!) انظر دقّة البيان عند هذا الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ. ما قال في الرسالة وهو يخاطب زملائه في طلب العلم، ما قال: ولكن غلب عليكم لؤمكم وجهلكم وظلمكم... إلـخ، وإنما قال: ولكن غلب علينا! وهذا ملحظ مهم جدًّا في باب التوجيه والخطابة والوعظ والتذكير، لا يجعل الواعظ نفسه مبرًا وسليمًا، وإنما ما يعظ الناس به يُشرك نفسه معهم فيه، فيقول: ولكن من تقصيرنا، ولكن من تفريطنا، ولكن من ظلمنا لأنفسنا... ونحو ذلك، فهذا من حسن البيان، وله أثر في قلوب من يعِظهم ويذكِّرهم، إذا كان في خطابته دائما يقول: وأنتم.. وأنتم.. ربَّما قال بعضهم: هذا ماذا يكون!؟ ماذا يكون؟ ملَك هذا ولا ماذا!!؟

وإذا زاد علىٰ ذلك، إذا زاد علىٰ هذا أنّ هذا الذي يقول: أنتم وأنتم! يعرفون من سلوكه أشياء وأشياء من التفريط لم يكن لموعظته أي وقع في نفوسهم! فتزل عن القلوب أن تتمكن منها أو تصل إليها.

لكن في مثل هذا الإمام ونظرائه من أهل العلم علىٰ قدر عظيم من الاستقامة والعبادة والصلاح، ثم لمّا يعظ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (ولكن نقول: ربنا غلب علينا لؤمنا وجهلنا وظلمنا وإساءتنا...) يعنىٰ أتىٰ (بهذه) العبارات، (فها نحن مقرون بالتفريط والتقصير، من ادّعىٰ منا عندك وجاهة فليس إلا ذليل حقير)، الذي يدّعي لنفسه أنه وجيه عند الله، وله منزله عظيمة عند الله، وله مكانة هذا ذليل حقير ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم]، فلا يزكي المرء نفسه؛ بل ينبغي عليه أن يجمع مع إحسانه في العبادة - إن وفقه الله للإحسان فيها - رؤية التقصير دائما في حق الله وفي جنبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل ما ذكر الله سبحان وتعالىٰ في سورة المؤمنون، لمّا ذكر أوصاف عباده الكمل، ذكر من أوصافهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون]، أي: يُقدّمون ما يقدمون من طاعات وعبادات وقربات.. وهم خائفون ألا يقبل منهم! وأن تُردّ عليهم أعمالهم!

وقد جاء في «المسند» بسند صحيح، أنّ أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، سألت النبي ﷺ عن هذه الآية، قالت: يا رسول الله؛ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر!؟ (ويخاف أن يعذب) قال: «لا يا بنت أبي بكر، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو يخاف ألا يتقبل منه» [صحيح ابن ماجه].

فالحاصل أنّ المؤمن هذا شأنه، يُحسن وفي الوقت نفسه عنه إشفاق وخوف، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: إنّ المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن. الحاصل أنّ ابن القيم يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الخاتمة الأحوال التي عليها الناس، من تفريط وتقصير وأشياء من هذا القبيل، حتىٰ إذا لمس المرء هذا التقصير في نفسه يجتهد في النهوض بها إلىٰ الصلاح والاستقامة علىٰ الجادة التي يسرّه أن يلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها يوم القيامة.

وقد كان يغني من كثيرٍ من هذا التطويل ثلاث كلمات كان يكتب بها بعض السلف إلىٰ بعض، فلو نقشها العبد في لوح قلبه يقرؤها علىٰ عدد الأنفاس لكان ذلك بعض ما يستحقه، وهي:

من أصلح سريرته أصلح الله علانيته،

ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس،

ومن عمل لآخرته كفاه الله مؤنة دنياه.

يقول: (وقد كان يُغني من كثير من هذا التطويل ثلاث كلمات كان يكتب بها بعض السلف إلىٰ بعض)، يغني عن هذا التطويل، الآن قرأنا يعني كلام أحسنَ رَحِمَهُ اللَّهُ في تحريره، وأحسنَ في البيان وأجاد رَحِمَهُ اللَّهُ في النصح، لمّا انتهىٰ من هذا الكلام، أراد أن يُنبّه علىٰ أنّ العبارة الطويلة التي في الكتاب - في رسالته هذه التي حررها - يغني عنها ثلاث كلمات، وسبحان الله هذا الذي يعني يحرره ابن القيم هو من جمال البيان، يعني هو قدّم نصيحة عظيمة جدا، كل واحد منا بحاجة إليها.

حتىٰ أنني أظن في جميع من استمعوا إلىٰ هذا الكتاب في هذا المجلس، أظن في جميع من استمعوا هذا الكتاب أنّ كل واحد يقول: لن تكفينا هذه المرة سنرجع لهذا الكتاب مرة أخرىٰ بإذن الله، نقرؤه بتمعن وتمهل وتدقيق في كلام ابن القيم، ونكون أيضا في الوقت نفسه نقرأه قراءة هادئة بعيدا عن الكلام الطويل الذي يقوله الشارح، ربما أنه أيضا في تطويله في الشرح يقطع علينا كثير من الفائدة، فلعلنا بإذن الله نجلس مع هذا الكتاب جلسة أخرىٰ صافية، نتأمل في الكتاب ونستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ تحقيق هذه المضامين.

أقصد أنّ ابن القيم من حسن بيانه - بعد أن باح بهذا البيان، ويسّر الله له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الفوائد العظيمة - أراد أن ينبه إلىٰ أنّ عبارات السلف رحمهم الله - وهذا نص عليه في بعض كتبه - قليلة الألفاظ، لكنها كثيرة الفائدة، فيقولون الكلمات المعدودة لكنها تنطوي علىٰ خير عظيم، وفائدة كبيرة جدًّا، وهذا مما أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به السلف رحمهم الله، كلمات قليلة وجيزة جدًا لكنها حوَتْ الخير العظيم.

من ذلك هذا الأثر الذي أشار إليه، وأثنىٰ عليه، قال: (ثلاث كلمات كان يكتب بها بعض السلف إلىٰ بعض،

فلو نقشها العبد في لوح قلبه يقرؤها علىٰ عدد الأنفاس لكان بعض ما يستحقه)، يعنىٰ هذا الكلام، أو هذا البيان، فيقصد رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ هذا الأثر جدير بأن يُعتنىٰ به عناية كبيرة جدًّا، وقد روىٰ هذا الأثر ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي عون رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قال: كان السلف يوصي بعضهم بعضًا بثلاث كلمات، وفي رواية ثلاث أحرف، وإذا غاب بعضهم عن بعض كتب بعضهم لبعض بها - هذه الثلاث الكلمات.

الأولىٰ: (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته).

السريرة القلب، (أصلح سريرته) أي: أصلح قلبه، بأن يجتهد في صلاح قلبه، وصلاح القلب هو المرتكَز وعليه المُعوّل، قد مر معنا قول نبينا عليه الصلاة والسلام: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ**» [صحيح البخاري ومسلم].

فقوله - قول السلف في هذا الأثر -: (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته)، هذا مطابق للحديث «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**» فلابد من عناية دقيقة جدًّا بالقلب، بأن يكون فيه الإخلاص، فيه الصدق، فيه التوكل، فيه الإنابة، فيه الرجاء -رجاء الله-، فيه الخوف من الله... إلىٰ غير ذلك من أعمال القلوب العظيمة، يجتهد أن يصلح قلبه بها.

وهذه الأشياء - التي هي أعمال القلوب - إطلاقًا لا يراها الناس، ولا يطّلعون عليها، وإنما هي أعمال بين العبد وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا الناس يجلس بعضهم إلىٰ بعض، ويرىٰ بعضهم بعضًا - حتىٰ في عباداتهم وأعمالهم إلىٰ غير ذلك - لكن لا يطّلعون.

ولهذا من كلام السلف والصحابة: لنا الظاهر والله يتولىٰ السرائر. أي القلوب، فإذن من أهم ما يكون - وهذه وصية السلف بعضهم لبعض - أن يجتهد الإنسان في إصلاح قلبه، وعليه أيضا أن يكثر من الدعاء في أن يصلح الله قلبه، وفي الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها**» [صحيح مسلم].

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «**التقوىٰ ها هنا**» **وأشار إلىٰ صدره ثلاث مرات**. [صحيح مسلم]

فالذي عليه المعنىٰ وقيام الأمر صلاح القلب، ولهذا أول ما يكون في هذا الباب العمل علىٰ إصلاح السريرة، إصلاح القلب، بأن تكون سريرة نقية، أن يكون القلب سليم، أن يكون القلب مُخبتًا مخلصًا صادقًا منيبا متوكلًا راجيًا طامعًا... إلىٰ غير ذلك من أعمال القلوب، يعمل علىٰ صلاح قلبه، إذا حصل هذا الصلاح للقلب كل أمور العبد تستقيم، كل أمور العبد تستقيم باستقامة القلب، (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته)، هذه الوصية الأولىٰ.

الثانية: (من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس).

وهذا أيضًا يحمل العبد دائمًا وأبدًا علىٰ مراعاة صلاح حاله بينه وبين الله، ويلتمس دائما في الأمور والتعاملات ما فيه رضا الله، لأنّ العبد يمر في حياته بمآزق، ربما تدفعه إلىٰ مجاملة الناس ومجاراتهم في أمر يعلم أنّ الله لا يرضىٰ عنه به، فإذن هنا في مثل هذه الحالة الذي حصل: أنّ همته ملتفتة لصلاح ما بينه وبين الناس، حتىٰ لو كان في أمر يعلم أن الله لا يرضىٰ عنه بذلك، هذا خلل يجب علىٰ المرء أن يجاهد نفسه علىٰ السلامة منه، وهو سيمرّ ولابد في الحياة في مواطن يُختبر فيها في هذا، مواطن هي اختبار، فعليه أن ينتبه، وأن يكون رائده في هذا الباب كما قال السلف (الصلاح الذي بينه وبين الله)، «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عن وأرضىٰ عنه الناس**» [قال في صحيح الترغيب – صحيح لغيره]، وهذا الذي في الحديث هو المعنىٰ المراد هنا في قول السلف: (ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس).

الوصية الثالثة: (ومن عمل لآخرته كفاه الله مؤنة دنياه).

من عمل لآخرته، جعل الآخرة هي أكبر همِّه، ليس المراد بكلام السَّلف هنا تعطيل العمل للدُّنيا، وأن يكون الإنسان عالة علىٰ الآخرين؛ بل الإسلام جاء بالحض علىٰ العمل وترك البطالة، جاء بذلك، وأن يأكل المرء من كسب يده ولا يكون عالة علىٰ الآخرين؛ بل يجتهد. لكن لا تكون هذه الدنيا أكبر همّه ولا مبلغ علمه، يعمل لآخرته، همه الآخرة، وطِلبته وبُغيته الآخرة؛ لكن لا ينسىٰ نصيبه من الدينا، ولا يكون عالة علىٰ الناس.

(ومن عمل لآخرته كفاه الله مؤنة دنياه)، وليس في قولهم: (كفاه الله مؤنة دنياه) أنّ المقصود تعطيل العمل، وأنّ الإنسان يُكفىٰ ولا يعمل، ليس هذا هو المراد؛ بل السلف رحمهم الله جاء عنهم آثار كثيرة في الحث علىٰ العمل، وأفردها ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة مطبوعة «الحث علىٰ التجارة والكسب والعمل» أو قريبًا من هذا العنوان، السلف جاء عنهم آثار عظيمة في هذا الباب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس**» [صحيح البخاري ومسلم].

فالحاصل أنّ المقصود هو ألّا تكون الدنيا هي همّ الإنسان، ومبلغ علمه، لا يفكر إلا في الدنيا، ولا يعمل إلا للدنيا، ولا... هذا غير صحيح، بل يكون همته الآخرة، واجتهاده في نيل ثواب الآخرة، ولعل ممَّا يوضّح هذا المعنىٰ الذي تحدّث عنه ما جاء في الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: اللَّهُمَّ «**لا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا**» [صحيح الترمذي]، أكبر همنا، هذا الخطأ إذا كانت الدنيا أكبر همّ الإنسان، لكن كونه يهتم للدنيا هذا مطلوب، كونه يهتم للدنيا يهتم لمعاشه طعامه شرابه مسكنه، يطلب الرزق له ولولده ولـ...

هذه الأمور مطلوبة، لكن لا تكن هي أكبر همّ المرء ولا مبلغ علمه.

وهذه الكلمات برهانها وجودها، ولِمِّيَّتُها إنِّيَّتُها، والتوفيق بيد الله، ولا إله غيره ولا رب سواه.

هذه الكلمات ليست مجرد يُقال ويُسمع ويُكتب ويُحفظ... لا ليس هذا هو.

يقول: (هذه الكلمات برهانها وجودها، ولمّيتها إنّيتها)، يعني أنها تكون واقعة آنِيًّا وحالًا في حياة الإنسان وعمله وسلوكه، ليس مجرد كلام يُسمع، وإذا انتهىٰ نقول: عبارة السلف هذه جميلة جدًّا ورائعة! ثم لما ننطلق للعمل نغفل عن... لا ليس هذا، يقول: ليس هذا. (هذه الكلمات برهانها وجودها)، (وجودها) يعني واقعًا في سلوك المسلم، وسلوك طالب العلم، (والتوفيق بيده الله لا إله غيره ولا رب سواه).

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: وليعذر الأصحاب في هذه.

ثم قال: يعني كأنّ الناس في الأخير - كأنه والله أعلم - كأنّه بدأ يختصر يعني بعض الرسالة.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: وليعذر الأصحاب في هذه الكلمات، فإنها والله نفثة مصدور، وتنفّس محرور.

نعم، مُحبّ، يعني مُحبّ لإخوانه، وحريص علىٰ نصحهم والأخذ بأيديهم للمقامات العالية والمنازل الرفيعة، رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له وجزاه خير الجزاء.

أقلّبُ طرْفي لا أرىٰ من أُحبّه ... وفي الحي ممن لا أحب كثيرُ

فهو نفس من قد أكل بعضه بعضًا، فهو المبتدأ والخبر، ومنه الغناء ومنه الطرب.

ما في الخيام أخو وجدٍ يطارحه ... حديث ليلىٰ ولا صبٌّ يجاريهِ

فأحبّ مُحِبُّكم مُطارحة من بعدت عنه دياره، وشطّ عنه مزاره، فهو كما قيل..

(وشطَّ عنه مزاره) يعني يقول: أن بعيد عنكم، لكن ما نسيتكم، ويعني أطارحكم هذه الوصايا وهذه المعاني الجميلة، وإن كان الديار متباعدة والزيارة والتلاقي يعني في هذا الوقت غير متيسر، لكنني يعني أطارحكم ما عندي بهذه الوصية التي كتبتها في هذه الأوراق، ولعله والله تعالىٰ أعلم من نُصحِ هذا الرجل وصدقه مع الله بقيَت موعظة للناس من بعده، لم تكن لمن كتبها لهم فقط الذين هم زملاؤه ورفقاؤه في الطلب، بل يسّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقاءها علىٰ مرّ الأزمان، قرأها من طلاب العلم وأهل العلم المرات الكثيرة عبر الأزمان، وفي زماننا هذا طُبِعت الطبعات الكثيرة، ونفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها خلقا كثيرًا، ولعلّ هذا والله أعلم مِنْ نُصحِ هذا الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له.

فهو كما قيل:

يـا ثاويـا بـين الجـوانح والحشـىٰ ... منّـــي وإن بعُـــدَت علـــيّ ديـــارهُ
عطـفٌ علـىٰ قلـبٍ يُحبّـك هـائمٍ ... إن لـــم تصـــله تقطعـــت أعشـــاره
وارحـم كئيبًـا فيـك يقضـي نحبـه ... أسـفا عليـك ومـا انقضـت أوطـاره
لا يســـتفيق مـــن الغـــرام وكلمـــا ... نَحَـــوْكَ عنـــه تهتّكـــت أســـتاره

وكل ذي شجوٍ يصرف هذا وأمثاله إلىٰ شجوه.

نعم، يعنىٰ أنواع الشجو، يعنىٰ فيهم من شجوه مع رفقائه في العبادة والعلم وأن يرتقي وإياهم المرتقيات العالية، ومنهم من شجوه في خسائس الأشياء وسيئ الأمور.

❀❀◊❀❀

وهذا مما يستروح إليه المكروب بعض الاسترواح، وهيهات هيهات إنّ القلب لن يَقرّ له قرارٌ حتىٰ يوضع في موضعه، ويستقر في مُستقره الذي لا مقر له سواه، كما قيل:

إذا ما وضعت القلب في غير موضع ... بغيـــر إنـــاء فهـــو قلـــب مُضـــيّعُ

وتحت هذا البيت معنىٰ شريف جدًّا، قد شرحته في كراسة مفردة والله أعلم.

يقول: (هيهات هيهات إنّ القلب لن يقر له قرار حتىٰ يوضع في موضعه) أي الذي خلقه الله له، فالقلب خُلِقَ ليكون قلبا ذاكرًا لله، مُعظّمًا لله ﷻ، فلا يقرّ قرار القلب إلا أن يوضع في الموضع الذي خلِقَ له، ولهذا سعادة القلب وزوال القلق عنه والاضطراب لا يكون إلا بهذا، القلب خُلِقَ ليكون موحّدًا معظمًا ذاكرًا لله ﷻ، لا أن يكون غافلًا لاهيًا ساهيًا مستودعًا لوساوس الشياطين والأوهام والشهوات المحرمة... وإلىٰ غير ذلك، مما بها تلف القلب وفساده وضياعه.

ثم ذكر هذا البيت قال: (إذا ما وضعت القلب في غير موضعٍ بغير إناءٍ فهو قلبٌ مضيع). أشار ﵀ أنّ له رسالة أفردها في هذا البيت، أشار إلىٰ ذلك، وشيخ الإسلام ابن تيمية له في «مجموع الفتاوىٰ» كلام حول هذا البيت وبيان معناه، من حاصل قوله ﵀ - أعني ابن تيمية - في كلامه علىٰ قول الناظم: (إذا ما وضعت القلب في غير موضع بغير إناء فهو قلبٌ مضيع):

إذا ما وضعت قلبك في غير ما خُلق له، فاشتغل بالباطل، ولم يكن معك إناء يوضع فيه الحق، فقلبك إذن مُضيّع، يعني القلب خُلِقَ للحق، فإذا لم يُشغل بالحق وإنما شغل بالباطل، وليس مع الإنسان إناء يضع فيه الحق، ويرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية أنّ الإناء هنا في البيت هو نفس القلب، هو القلب بعينه، فإذا كان القلب شُغِل بالباطل، وليس معك إناء، وقلبك ليس معك تحفظ به الحق، (صار قلبًا مضيعًا)، ضيعه صاحبه في

الأمور المُردية المُهلكة، ولا نجاة للمرء يوم القيامة إلَّا إذا جاء إلىٰ الله ﷻ بقلبٍ سليم.

هذا آخرُ ما ذكره الشيخ رضي الله عنه وأرضاه في هذا الباب، والحمد لله وحده، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آلة وصحبه وسلم.

يعني هذا ما ختم به ابن القيم رحمه الله تعالىٰ هذه الرسالة العظيمة - الرسالة التبوكية - وهي رسالة يعني كما عرفنا كتبها وصية لزملائه ورفقائه في طلب العلم، أحسنَ فيها وأجادَ ونصح نُصحًا عظيما، نسأل الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء وأوفاه، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علما وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ ذكر في هذه الرسالة من ضمن وصاياه العظيمة: (دوام التفكر وتدبر آيات القرآن، بحيث يستولىٰ علىٰ الفكر ويشغل القلب). قال: (فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه، وهي الغالبة عليه، بحيث يصير إليها مفزعه وملجؤه تمكن الإيمان من قلبه).

ثم عقد فصلا مطولًا ذكر فيه آيات كما عرفنا من سورة الذاريات، وبيّن المعاني المستفادة من ذلك.

مُرادي أنّه في هذا الفصل صدّره بقوله: (رأس مال الأمر وعموده في ذلك دوام التفكر في القرآن وتدبر آياته).

ووقفت علىٰ كلام عظيم له جدًّا في كتابه رَحِمَهُ اللَّهُ «مدارج السالكين»، في فصل حول هذه المعنىٰ (تدبر القرآن) فأحببت أن نستمع إليه خاتمةً وتتميمًا لوصيته في هذا الأمر الذي عليه مدار الأمر، وهو رأس الأمر كما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

فصلٌ

وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمعُ الفكر علىٰ تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد]

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف]

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: نزل القرآن ليُتدبّر ويُعملَ به، فاتخَذوا تلاوته عملًا!

يُذكر أن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ – وهو من علماء التابعين – رأىٰ بعض القراء في زمانه انشغل بالقراءة فقط، ولم يكن له عناية بالتدبر والعمل، فقال هذه الكلمة، هذا في أي زمان؟ زمن التابعين! فلو جاء في زماننا ماذا عساه أن يقول رَحِمَهُ اللَّهُ!؟

فليس شيءٌ أنفعَ العبد في معاشه ومعاده وأقربَ إلىٰ نجاته من تدبّر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تُطلِعُ العبدَ علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما. وتتل في يده مفاتيح...

(وتتُلّ في يده) أي تضع في يده.

وتتُلّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثبِت قواعد الإيمان في قلبه، وتُشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصّره مواقع العِبَر، وتُشهِده عدل الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يُبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتُعرّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم،

ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه...

وبالجملة: تعرفه الرب المدعوّ إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذ قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرىٰ: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها.

فتشهده الآخرة حتىٰ كأنه فيها، وتُغيّبه عن الدنيا حتىٰ كأنه ليس فيها، وتُميّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرّق به بين الهدىٰ والضلال، والغيّ والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإنّ معاني القرآن دائرة علىٰ التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلىٰ الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلىٰ الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جُعِلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم من حين يستقر في رحم أمه إلىٰ يوم يوافي ربه ويقدم عليه.

(وما يختص بالنوع الإنساني) يعني أعمال الملائكة التي تختص بالإنسان.

❀❀◊❀❀

وما يختص بالنوع الإنساني منهم من حين يستقر في رحم أمه إلىٰ يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلىٰ الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المُطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتمّ تفصيل وأبينه، وعلىٰ تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحِكَم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره...

هذه كلها خلاصات عظيمة جدًّا لما يجده قارئ القرآن والمتدبر لآياته ومعانيه وهداياته.

❀❀◊❀❀

فلا تزال معانيه تُنهِضُ العبد إلىٰ ربه بالوعد الجميل، وتحذّره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه علىٰ التضمّر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتَهديه في ظُلَم الآراء والمذاهب إلىٰ سواء السبيل، وتصدُّهُ عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه علىٰ الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصّره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلّا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبّت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل،

وتسهّل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتُناديه كلما فترت عزماته وونىٰ في سيره: تقدَّمَ الرّكبُ وفاتَكَ الدّليل! فاللحاق اللحاق والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصِم بالله واستعِن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

حسبك. هذا كما ذكرت فصلٌ عظيم جدًّا فيه خلاصة بديعة، يُنصح طالب العلم والمعتني بالقرآن أن يقرأها مرات عديدة، ثم يجعلها هدفًا له، يجعلها هدفا وغاية يطلب تفاصيلها في كتاب الله ﷻ، لأنّ ابن القيم لخّص معاني القرآن، أو كثيرا من معاني القرآن وأحكامه ومضامينه في هذه الخلاصة العظمية، فهي خلاصة عظيمة جدًّا، لو يقرؤها طالب العلم والمهتم بكتاب الله ﷻ ويجعلها سببًا لمعونته علىٰ تحصيل هذه الفوائد والحِكم في كتاب الله ﷻ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألَّا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفه عين، اللّٰهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحولُ بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللّٰهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوراث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

أنبّه أنّ الدرس يتوقف، ونواصل بإذن الله الأحد الذي بعد القادم بداية الفصل القادم بعد الفجر بإذن الله تعالىٰ في كتاب «الداء والدواء» لابن القيم، إكمالًا لما بقي منه.

سبحانك اللّٰهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللّٰهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

تمّ بحمد الله تعالىٰ وفضله وحده